

«الآن حَصَّصَ الْحَقُّ» إضاءاتٌ تفسيرية.. وومضاتٌ دعوية

محمد وصفي مصطفى جلاّد



@Tafsircenter

«الآن حَصَّصَ الْحَقُّ»

إضاءاتٌ تفسيرية.. وومضاتٌ دعوية

محمد وصفي مصطفى جلاّد

www.tafsir.net



Tafsir Center For Qur'anic Studies



فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَأْسَ
النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ
مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رُودُنُّنَّ يَوْسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ۗ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ
مَا عَلَّمَنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتُ امْرَأَتُ الْعَرَبِ إِنَّ الْفَنَ حَصَّصَ
الْحَقُّ أَنَا رُودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ۗ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ
لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾

يتتبع هذا المقال دلالات مفردة (حَصَّصَ) من المعاجم اللغوية وكتب التفاسير، ويحاول بيان امتدادات هذه الدلالات في سورة

يوسف، مع الوقوف على بعض الإضاءات التفسيرية المتعلقة بها، والومضات الدعوية المستنبطة منها.

منذ نعومة أظفاري، وكلما قرأتُ سورة يوسف، وخلصتُ من فصول الظلم والاضطهاد والألم والحزن في القصة، منتهياً إلى بلج الحق، مُستروحاً إلى إعلان براءة يوسف -عليه السلام- على الملأ، حين تعترف امرأة العزيز صاغرة لبهاء الحق: {الآن حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} [يوسف: 51]، كنتُ أجدني أعجبُ أشدَّ العجب من هذه الكلمة: (حَصَّصَ)، بما في نطقها من صعوبة، وما في تصريحها من تكرار، وما في جرسيها من إيقاع قوي غريب، ولم يكن في قولهم لنا: «إنها تعني: ظَهَرَ الْحَقُّ» ريٌّ من ظمًا، ولا ظلٌّ من رمض.

فقلتُ: بالله المستعان، ويَمَّمْتُ وجهي شطر مفتاح فهم القرآن، العربية تَرْجُمان القرآن، في رحلة شائقة مائعة، بدائها بجولة مع عين الفراهيدي، ثم عطفت على تهذيب الأزهرى، فصاح الجوهرى، وغيرها من أصول معاجم اللغة. ثم قفْتُ إلى كتب التفسير، من نُكت الماوردي، إلى بسيط الواحدي، إلى كشف الزمخشري، إلى مُحَرَّر الأندلسي، وغيرها من أسفار إخوانهم، فإذا بالمعاني تَتَفَتَّقُ بعد الصدور عن ينابيعهم، تَفْتَقُ السماء بالماء، وتفتق الأرض بالنماء، ثم رَصَّعْتُ ذلك بما يلزم من ربطٍ للمعاني بالحياة والواقع؛ إذ الغاية من تَعَلُّم القرآن لا تقف عند شاطئ جمال البيان، بل تسبح منه إلى عمل وجهاد في الميدان، ثم حَلَيْتُ ذلك بما تَعَلَّمناه في الدرس الصوتي، فازداد الفهم عرفانًا، وازدان البيان بيانًا، وازيَّنت المعاني جمالًا وإحسانًا، فأبرقتُ ثماني إضاءات:

أولاً: (الحصصة) ظهور بعد كتمان:

يُقال: حَصَّصَ الشيء، إذا ظهرَ بعد خفاء، أو تبيَّن بعد كتمان [1] ، وعلى هذا فإن (حَصَّصَ الحق) لا تعني مجرد ظهور الحق، وإنما تعني ظهوره بعد خفاء وكتمان.

وهذا ما كان في قصة يوسف -عليه السلام-؛ فرغم ظهور دليل براءته، إلا أن عزيز مصر قال: {يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا} [يوسف: 29] ، فأمره بالسكوت وكتمان الأمر وعدم الحديث فيه [2] ، ثم مكَّرت امرأة العزيز لنسوة القصر، فقطعن أيديهن، وعاهدنها على الكتمان، ثم سجنوه بضع سنين؛ إمعاناً في إخفاء الحقيقة، ورغم كل هذه المحاولات لكتم الحق إلا أن الله أظهر نبيّه، ورفع شأنه، ومكَّن له في الأرض.

إن كلمة (حَصَّصَ) فيها إيماضٌ لأهل الحق، أن لا ييأسوا من ظهور الحق مهما طال تَعْيِيبُهُ عن الناس، ومهما تَفَنَّنَ أهل الباطل في كتمانهم وإخفائهم، ومهما طال ظلام السجن والمنع والقهر، ومهما بذلوا من مال وجهد وكيد لكتم الحق وخنقه، فما مكرهم عند الله إلا كطفل ينفخ على نور الشمس ليُطفئها، والله غالب على أمره، قاهر فوق عباده، لا يُصْلِحُ عمل المفسدين، وإذا قال: «كُذِّبَ»؛ انقلب كيدهم إلى نحورهم، وارتدَّ سحرهم عليهم، وحَصَّصَ الحقُّ فوق رؤوس الظالمين، ليُدْمَمَ السقف على عروشهم.

ثانياً: (الحصصة) تمايز ووضوح:

اشتقاق لفظ (حَصَّصَ) أصله من الحِصَّة، بمعنى النصيب أو القسمة، قال الزجاج:

«الآن حَصَّصَ الْحَقُّ: أي بَرَزَ وتَبَيَّنَ، واشتقاقه في اللغة من الحِصَّة، أي: بَأَنْتُ حِصَّةُ الْحَقِّ وَجِهَتُهُ مِنْ جِهَةِ الْبَاطِلِ» [3] ، وقال الليث: «الحِصَّةُ: النَّصِيبُ، وَجَمَعَهَا: الْحِصَصُ. وَيُقَالُ: تَحَاصَّ الْقَوْمُ تَحَاصًّا، إِذَا اقْتَسَمُوا» [4] . والمُلاحَظُ في الواقع، أنه عندما يشترك الناس في مالٍ، أو في ميراث أرض، فعادة ما تكون حِصَصُهُمْ في المال أو الأرض مُختلطة، وإذا دام هذا الاختلاط بلا فَصْلٍ ولا وضوح ولا تمايز، لربما دَخَلَتْ بينهم نزغات الشيطان، فإذا تَحَاصَّصُوا تَمَيَّزَتْ حِصَّةُ كُلِّ إنسان، وانفقت الريبة.

قال الماوردي: «حَصَّصَ الْحَقُّ، أي: انقطع عن الباطل بظهوره وبيانه» [5] ، فكأنما كان الحق مُختلطًا مع الباطل في أذهان الناس، متصلًا به، قطعة واحدة؛ وهذا من عمل المُبطلين المفسدين، الذين يلبسون الحق بالباطل، فيُصِفون الشبهات والأكاذيب بالحق وأهله، فيتوهم الناسُ الحقَّ باطلاً، والباطلَ حقًا، ويُكذِّبون الصادق، ويُصدِّقون الكاذب.

واستنادًا لما سبق، فإنَّ (حَصَّصَ الْحَقُّ) لا تعني مجرد ظهور الحق بعد كتمانته، بل هي تعني مع ذلك، أنه انفصل عن الباطل، وتمايز عنه، وظهر للناس أن هذا هو الحق الناصع، لا ريب فيه، ولا شبهة ولا غَبَشَ يعتريه، وأن ذلك هو الباطل القاتم، عاريًا مما كان يُموّه به على الناس.

إنَّ كلمة (حَصَّصَ) توحى بأن مسألة براءة يوسف -عليه السلام- كانت قد أُلْقِيَتْ فيها شبهات وغطاوات، ورغم ظهور الحق على لسان شاهدٍ من أهلها، ورغم تَبَيُّنِ كُلِّ مَنْ خالط يوسف -عليه السلام- بعفته ونزاهته وبراءته، إلا أن الملاء سَعُوا

جاهدين في كتم الحقيقة، فأمرُوا -وعزیزُ مصر- يوسفَ بالإعراض عن ذكر ما كان، وتعاهدت امرأة العزيز مع النسوة على الكتمان، وسجنوه ليُكَمِّمُوا أفواه الحقيقة، واستمروا في التدليس والتلبیس والتخليط، فلما حَصَّصَ الحقّ، تمايز الحقّ عن الباطل تمايزًا لا شبهة فيه، ووقع كالقول الفصل.

ويزيد الثقة بهذا الأمر، أن رسول الملك حين جاء إلى يوسف -عليه السلام- ببشرى الخروج من السجن، لم تأخذه نشوة الفرح ليطير سريعًا إلى أجواء الحرية، بل طالب بإقامة الحجة البالغة التي تَقْصِمُ كلَّ شبهة، وتَقْصِمُ كلَّ ريبة: {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ} [يوسف: 50] ، وهذا يدلّ على أن يوسف -عليه السلام- كان يعلم أن الحقيقة يكتنفها غموض وتلبیس، فأبى أن يخرج قبل أن يُفصلَ الحقّ عن الباطل، وتتجلي الغشاوة عن العقول والعيون.

وتعود كلمة (حَصَّصَ الحقّ) لثُبْرَقَ لأهل الحقّ، فتقول: إنّ أهل الباطل في كلِّ زمان ومكان يعلمون أن باطلهم كَرِيهٌ قبيح، فلا يضرهم أن يخلطوا باطلهم بالحقّ، أمّا الحقّ فهو أبيض ناصع، لا يقبل ذرة من اشتباهٍ بالباطل؛ ولذا تجد أهل الباطل يرضون بمساومة أهل الحقّ مقابل تنازلهم عن شيء من نصاعة حقهم، وههنا المقتل، إن لم يكن أهل الحقّ على بصيرة تدفعهم للحرص على نصاعة فكرهم، وتمايز مبادئهم، واستعلاء قيمهم، وليعلموا أن كلَّ خطوة للمساومة على نصاعة الحقّ تُؤخِّرُ حَصَّصَ الحقّ، ألا فليحذروا وليتقوا الله على ما استأنهم من حقّ ورثوه عن أنبياء الله، على محجة بيضاء.

ثالثاً: (الحصصة) محق ودمغ:

قال أبو عبيد في معنى الحَصِّ: «الخاصَّة: مَا يَحُصُّ شَعْرَهَا: يَحْلِقُهُ كُلُّهُ فَيَذْهَبُ بِهِ» [6] ، فالخاصَّة مرض يصيب الشعر، فيذُهبه، و«ناقة حصاء؛ يعني: ليس عليها وبرٌ» [7].

ويؤخذ من هذا أن (حَصَّصَ الْحَقُّ) لا تعني مجرد ظهوره بعد كتمانته مُنفصلاً عن الباطل، متميزاً عنه، بل هي مع ذلك تعني: ظهوره ظهوراً يُذهب الباطل، ويمحقه كما ينمحق الشَّعْرُ إذا أصابته الخاصَّة، ويدمغه فإذا هو زاهق، بلا أثر، فلا تُحِسُّ له همساً، ولا تسمع له ركزاً.

وهذا المعنى يُبرِّقُ للدعاة معلماً من معالم الصراع بين الحق والباطل، يقول: إن الباطل لا يمكن أن يتعايش مع الحق في مكان واحد، في زمان واحد، حتى لو أراد أهل الحق ذلك، فإنَّ أهل الباطل لا يرضون بذلك، وسرعان ما يقذفون أهل الحق بأذاهم، فلا بد من صراع، ولا بد من دمغ، ولا بد من حصصة، إمَّا أن يَحُصَّ الحقُّ الباطلَ فيحصده ويدمغه، وإمَّا أن يَحُصَّ الباطلُ أهلَ الحقِّ، إلى أن يأذن الله ببعث طائفة مؤمنة تردُّ للحقَّ صَوْلته، وتَسْحَتُ للباطل جَوْلته، وتدمغه فإذا هو زاهق، والدعاة الذين يتوهمون رضاً من الباطل عن حقهم، واهمون، عسى أن يُبْصِرُوا في كلمة (حَصَّصَ الْحَقُّ) نوراً يكشف الحقائق، ويُجلي البصائر، وفيما قصَّه القرآن من أنباء الأنبياء مع أقوامهم شاهدٌ ودليل.

وبالعود إلى قصة يوسف، نجد تعبير (حَصَّصَ) يناسب سياق القصة أتم مناسبة وأحْكَمَهَا؛ ذلك أن ظهور الحق في قصة يوسف رافقه دمغٌ للباطل وصغارٌ لأهله،

بل وتَبَدَّلُ في الموازين؛ فإذا بالمحصور في السجن يَتَقَلَّبُ في الأرض كيف يشاء، وإذا بمن سجنوه لِيُسَكِّتُوا صَوْتَهُ يُصْعُقُونَ لَصَوْتِهِ طَالِبِينَ سَمَاعَ كَلِمَتِهِ، وإذا بالحاكمين عليه يُمَسُّونَ رَاضِينَ بِحُكْمِهِ، وإذا بمن كان سيِّدَهُ يَرِجُو الآن قُرْبَهُ وَيُقَدِّمُ رَأْيَهُ.

ولك الآن أن تتساءل: لو جاء التعبير في القصة بلفظ آخر مما يقارب لفظ (حَصَّصَ) في المعنى، نحو: جاء الحق، أو استبان الحق... إلخ، هل كان سيؤدي هذه الوظيفة التي أدتها كلمة (حَصَّصَ)؟! ألا فسبح بحمد ربك الذي أنزل كتاباً أحكمت آياته.

رابعاً: (الحصصة) ثبات واستقرار:

ذكروا في معاني (حَصَّصَ): «الحركة في الشيء حتى يَسْتَقَرَّ فيه وَيَسْتَمْكِنَ» [8] ، ويقولون: حَصَّصَ البعير، إذا فَرَكَ رُكْبَتَيْهِ فِي الْأَرْضِ؛ لِيَثْبِتَهُمَا عِنْدَ النَّهْوِ بِحَمْلِ ثَقِيلٍ [9] ، أو إذا أراد البروك ففرك صدره بالأرض؛ لِيُفَرِّقَ الْحَصَى وَيُلَيِّنَ مَا تَحْتَهُ، فيستقر في بروكه ويتمكن [10] ، فالحصصة هي الاحتكاك الشديد، الذي يَصْدُرُ عِنْدَ إِرَادَةِ تَثْبِيثِ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَتَمْكِينِهِ.

وتأسيساً على هذا، فإن (حَصَّصَ الحق) لا تعني مجرد ظهوره بعد كتمانته وتمايزه عن الباطل ودمغه له، بل تعني مع ذلك ظهوره بقوة وثبات واستقرار، وكأنَّ الْحَقَّ فَحَصَّ الْأَرْضَ، وَفَرَكَهَا، وَحَرَكَهَا لِيَنْغْرَسَ فِيهَا كَالْوَتْدِ الَّذِي لَا يُقْلَعُ.

وفي هذا المعنى بُشِّرَى لِأَهْلِ الْحَقِّ، تقول: رَابَطُوا عَلَى صَبْرِكُمْ وَثَبَاتِكُمْ عَلَى حَقِّكُمْ، فَإِنَّمَا تَلْبُثُ الْحَقُّ أَمْتَدَادًا لِلْجُذُورِ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى إِذَا حَصَّصَ ، ثَبَّتَ وَاسْتَقَرَّ أَمَادًا

وأحقابًا، ولئن كانت دولة الباطل ساعة، فإنّ دولة الحق إلى قيام الساعة.

وعودًا إلى قصة يوسف، فإن هذا التعبير يناسب سياق القصة، وتاممها، حيث لم يقف الأمر عند ظهور الحق، بل أيقن الجميع ببراءة يوسف -عليه السلام-، وطارت أخبار براءته وصدقته في الآفاق، ثم تبع ذلك تمكين يوسف في الأرض: {فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ... وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ}[يوسف: 54-56] ، وهذا الظهور الصارخ للحق وما تبعه من تمكين لا تُوقِّيه حقّه كلمة أخرى، نحو: ظهر الحق، أو انجلى الحق، أو ما شابهها.

خامسًا: (حصصة الحق) تكرار ظهوره:

يُلاحَظ في البنية التركيبية لكلمة (حَصَّصَ)، أنها جاءت على تصريف الفعل الثنائي المُكرَّر، على وزن (فَعَّلَ)، وهذه الصيغة تدلّ على تكرار حدوث الفعل، قال ابن جني: «... وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المُضَعَّفَة، تأتي للتكرير، نحو: الزعزعة، والقلقلة، والصلصلة... فجعلوا المثال المُكرَّر، للمعنى المُكرَّر»[11].

وهذا الصوت المُكرَّر، فيه تصويرٌ دقيق لمراحل ظهور الحق في قصة يوسف -عليه السلام-، وتكرُّره مرة تلو أخرى إلى أن استقرّ وثبت ثباتًا راسخًا متميزًا لا غبش فيه، داحضًا للباطل؛ فقد كان أول ظهور للحق حين شهد شاهد من أهلها بالقميص، ثم تكرّر مرة أخرى حين جمعت امرأة العزيز نساء رجال بلاط القصر، وكان ما كان من تقطيع أيديهن، ثم قولها: {وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ}[يوسف: 32] ، وحتى بعد أن سجنوه، توالت علامات الحق؛ سيماه في وجهه: {إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}[يوسف: 36] ، وصدقته في دله: {يُوسُفُ أَيُّهَا

الصِّدِّيقُ} [يوسف: 46] ، فكان وجهه شاهداً يُسْفِرُ عن الحقّ كلما نظر إليه إنسان، وكان هديه ناطقاً بالبرهان، يُفند كلّ اتهام، وهكذا تتوالى دلائل الحقّ في كلّ يومٍ وأن، إلى أن تمايز الحقّ عن الباطل، وانجلت كلّ شبهة، ودُمغت كلّ تُهمة، وقالت امرأت العزيز: {الآن حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} [يوسف: 51].

إنّ ظهور الحقّ في قصة يوسف، وإن كان معروفاً من أول يوم، إلا أنّ ظهوره ذلكم الظهور الذي لا لبسَ فيه، ظهوراً يدمغ الباطل ويُمكن للحقّ = جاء على مراحل متتالية؛ من شهادة القميص، إلى شهادة نساء المدينة، إلى شهادة أصحاب السجن، انتهاءً بقول امرأة العزيز؛ وهذا التكرار يناسبه لفظ (حَصَّصَ) بما في تصريفه من تكرار، أكثر من أيّ لفظ آخر.

وفي هذا التكرار، وصية لكلّ عامل للحقّ، أن لا يملّ من تكرار الصّدع بالحقّ، وأن لا يكلّ من مجاهدة الظالمين به جهاداً كبيراً.

سادساً: التصوير الصوتي في حصصة الحقّ:

سبق وذكرنا أنّ من معاني (حَصَّصَ) فَرَكَ البعير للأرض بصدّره، وقَحَصَ التراب ليُليّن موضع بُرُوكه، وهذا الفك للتراب فيه احتكاك قوي.

ويلاحظ في البنية الصوتية للكلمة حرفُ الحاء، وهو حرف احتكاكي مهموس، وحرفُ الصاد هو الآخر حرف احتكاكي صفيّري، وهذه الأصوات بما فيها من صفات الاحتكاك والهمس والصفيّر تُجسّد بصوتها صورة عملية الحصّ، بما فيها

من فركٍ واحتكاكٍ وصوتٍ يُشبه صوت صرّ الحصى.

وهذا الصوت في حصصه الحقّ يُضفي على معنى رسوخ الحقّ واستقراره في الأرض صوت الاحتكاك الشديد، المُعبر عن قوة الرسوخ والثبات.

سابعًا: التناسب بين صعوبة اللفظ ومشقة الطريق:

يلاحظ كلّ من ينطق الكلمة (حَصَّصَ) ما فيها من مشقة في النطق؛ ومرجع هذه المشقة إلى ثلاثة أمور:

الأول: حرفا الحاء والصاد فكلاهما احتكاكي مهموس، والحروف الاحتكاكية وإن كانت أضعف من الانفجارية صوتًا، إلا أنها أصعب منها نطقًا -بحسب ما تُظهر مختبرات علم الأصوات-، فالمكوّنات الصوتية في الكلمة من أولها إلى آخرها احتكاكية، فيها مشقة نسبية.

الثاني: ترتيب الحروف فيها من حرف الحاء الذي يُلفظ مُرققًا -بحسب قواعد علم تجويد القرآن الكريم-، ثم حرف الصاد المفخم، ثم الحاء المرققة لفظًا مرة أخرى، فالصاد المفخمة مرة أخرى، وهذا التوالي من الترفيق إلى التفخيم فيه مشقة، يستشعرها كلّ مُرتِّلٍ للقرآن وفق أحكام التجويد، حيث يضطر لبسط فمه، ثم تكويره، ثم بسطه، ثم تكويره.

الأخير: توالي الحركة فالسكون فالحركة في الكلمة من الفتحة إلى السكون إلى الفتحة، ومعلوم أن تغاير الحركات، يسهم في صعوبة لفظ الكلمة، بعكس الكلمات

التي تتوالى فيها الحركات نفسها، نحو (نَزَلَ) و(ذَهَبَ) و(رَكَعَ).

إنّ هذه المشقة اللفظية في نطق كلمة (حَصَّصَ)، تحاكي المشقة التي رافقت ظهور الحقّ، فلم يكن ظهور الحقّ سهلاً ولا هيباً، وإنما جاء بعد مخاض عسير، عبّر عنه القرآن الكريم بهذا اللفظ (حَصَّصَ)، الذي تتعاقب بنيته الصوتية مع دلالاته اللغوية؛ لتنبئ كلّ متذوق للجمال بسموّ كلام الله، الذي تأتي فيه كلّ مفردة عاشقة لمكانها، وفيّة لسياقها، لا ينوب عنها شيء من كلام البشر.

وإذا كان نطلق كلمة (حَصَّصَ الْحَقُّ) فيه هذه المشقة اللفظية، فليت شعري، كيف يرجو حصصة الحقّ في الميدان من « ينام مء جفنيه، ويأكل مء ماضغيه، ويضحك مء شذقيه»، أو من أعطى قليلاً ثم أكّدى؟!

ثامناً: الحصصة سرعة في ظهور الحقّ حين يشاء الله:

ومن معاني الحصصة: «الإسراع في السير» [12].

وكذلك كان في قصة يوسف، فرغم تطاول الأمد على طي الحقيقة وكتمانها، إلا أنه كان أجلاً عند الله له كتاب، فلما جاء مواعده أتى سريعاً لا يحجبه شيء، ولا تردّه قوة الباطل ولا مكره، وإن كان مكرراً لتزول منه الجبال.

ولا أدلّ على السرعة في ظهور الحقّ حين شاءت إرادة المولى -عز وجل- من ملاحظة أسلوب الحذف البلاغي في قوله -سبحانه وتعالى-: {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا مَكِينٌ أُمِينٌ} [يوسف: 54] ، فقد انتقل

بسرعة من أمر الملك إلى مشهد جلوس يوسف -عليه السلام- مُعزِّزًا مُكرِّمًا بإذن الله في مجلس الملك، وحذف مشهد استجابة رسول الملك لأمره، ثم انتقال الرسول من القصر إلى السجن، ثم إخبار يوسف بالأمر، ثم حضور يوسف إلى المجلس. حذف كلِّ هذا وانتقل مباشرة، من أمر الملك إلى محادثته ليوسف -عليه السلام- مباشرة، وهذا الحذف البلاغي فيه إشارة لسرعة حدوث الأمر، وهي السرعة التي تُنبئ عنها كلمة (ححصص)، وما كانت كلمة أخرى نحو (جاء) أو (حضر) لتدلّ على شيء من ذلك.

فأصنع لكلمة (ححصص) وهي تقول لك:

«ما بين غَمْضَةِ عَيْنٍ وَاثْبَاهَتِهَا .. يُعَيِّرُ اللهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ».

لفظ كريم من كتاب كريم:

فقل لي برّبِّك، ألا ترى هذا اللفظ (ححصص) لفظًا كريمًا؛ إذ وهبك كلَّ هذه المعاني والإشارات؟! وكيف لا يكون كريمًا وهو في كتاب سماه الله قرآنًا كريمًا؟!!

لعلك تقول لي: إن هذه المعاني المُكتنزة في كلمة (حَصَّصَ) موجودة فيها قبل استخدام القرآن لها، فلماذا يُنسب هذا الكرم في الدلالات، وهذا السموّ في البيان للقرآن، ولا ينسب لأيّ نصّ آخر يحوي مثل هذه الكلمة؟

أقول لك: إنَّ إعجاز القرآن ليس في مجرد تضمُّنه مثل تلك المفردات، وإنما هو في تخييرها في مواضعها، وإحكامها في سياقها، وما كانت البلاغة ولا الفصاحة يومًا

في تضمين النصوص ألفاظاً فخمة، وإنما هي في انتقاء المفردة التي تناسب السياق، فربَّ كلمة تراها متناغمة تَبْرُقُ ألقاً، وتتوهج ضياءً في سياق، وهي نفسها تراها سبباً للنشاز في سياق آخر، فالسموُّ البياني في النصِّ القرآني الذي احتوى كلمة (حَصَّصَ)، إنما هو لمناسبتها للسياق الواردة فيه من كلِّ جهة، جعلت جميع معاني الحصصة مؤتلفة مع السياق، متعانقة معه متعالقة، بحيث لو أبدلت أيّ كلمة أخرى مكانها لأصبح النظم نشازاً في صوته، خداجاً في معناه، وكما أن الدرَّ والياقوت في جيد الحسناء يزيدان حسناً، فهو نفسه على جذع القبيحة لا يستر من دمامتها شيئاً؛ وكذلك هي الكلمات الفصيحة، يظهر جمالها وسُمُوها وكرمها بحسن انتقائها في مواضعها بما يناسب سياق الكلام، وهو ما تجده في القرآن على نحو يحطم ما دونه من الكلام، وكما أن الشمس لا يُجَلِّبها إلا صُبْحُ الأرض، فلا يرى إشراقها من الكواكب الأخرى إلا نُكْتة خائسة من ضوء خافت، بينما هي في الأرض سراج وهَّاج؛ فكَذلك الألفاظ العربية، لا يكون إعجازها إلا من انتظامها في فلكها من آيات الكتاب العزيز.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

[1] العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، (3 / 14)، والمحمر الوجيز، لابن عطية الأندلسي، (3 / 253).

[2] الكشاف، للزمخشري، (2 / 461).

[3] معاني القرآن، للزجاج، (3 / 115).

[4] تهذيب اللغة، للأزهري، (259 /3).

[5] النكت والعيون، للماوردي، (47 /3).

[6] تهذيب اللغة، للأزهري، (258 /3).

[7] المصدر السابق نفسه.

[8] العين، للفراهيدي، (13 /3).

[9] تاج اللغة، للجوهري، (1033 /3).

[10] التفسير البسيط، للواحدي، (147 /12).

[11] الخصائص، لابن جني، (155 /2).

[12] تاج اللغة، للجوهري، (1033 /3).

